بسيسو في النقد السوفياتي المعاصر

ترجمة الدكتور شوقي العمري

يعكف الشاعر والناقد الادبي السوفياتي ميخائيل كورغانتسيف على ترجمة الاعمال الشعرية الكاملة للشاعر معين بسيسو . وكان قد ترجم له ديوانا صدر حديثا بعنوان « بطاقة زيارة » قدم له بالمقال التالي الذي نترجمه عن الروسية .

ان كتاب القارات الخمس الذين اشتركوا في لقاء اوزبكستان خريف عام ١٩٦٨ يتذكرون جيدا ذلك الشخص السامق ، ذا الشعر الاسود الذي قرأ اشعاره العربية من على منبر قصر الثقافة في طشقند .

لقد فتنت كلماته العجيبة .. ذات السحر النادر القاعة باكملها تقريبا . وانسابت الواحدة اثر الاخرى .. مقاطعه الموجزة ..الدقيقة .. والمتدفقة بموسيقى النار . مما خلق احساسا لدى السامعين بانهم في حضرة مولد شاعر رائع .. وشامخ .. وخارق للعادة . وكان هذا الشاعر هو معين بسيسو ـ الفلسطيني العربي .. والثائر الانتلجينت، واحد افضل الشعراء الوجدانيين المعاصرين في الشرق العربي .

ولد معين بسيسو في غزة عام ١٩٢٨ . وعندما بلغ من العمر عشرين عاما ، داهم الجزء الاعظم من ابناء وطنه مصير مروع .وتحول ضحايا السياسة الصهيونية والدسائس الكولونيالية من العرب الفلسطينيين الكادحين الذين عاشوا قرونا على الارض الفلسطينية الى منفيين .. ولاجئين .. ومضطهدين . ومنذ ذلك الوقت ..اصبحت حياة الفقر المحزنة مصير عشرات الالوف من الفلسطينيين في المنفى .

ومع مطلع الخمسينات دوى صوت معين بسيسو الشعري ،الصوت القوي الغاضب . لكن اشعاره الاولى كانت قد نشرت من قبل في جريدة (الاتحاد) ،جريدة الشيوعيين الاسرائيليين .

وفي عام١٩٥٢صدر ديوان (الرسائل) (١) وهو اول ديوان للشاعر، وقد اعيدت طباعته ستة مرات ، وحققت دواوين الشاعر معين بسيسو: (الاردن على الصليب) ، (فلسطين في القلب) ، (الاشجار تموت واقفة) ، (السد العالي) ، (جئت لادعوك باسمك) انتشارا واسعا في العالم العربي .

ان اشعاره عنيفة وشجاعة ، وشريفة كذلك ، لانها تتناول الموضوعات التي يعاني منها معاصروه في الوقت الحاضر . وهي اشعار عن الحرية والاضطهاد ، عن الوطن والانسانية ، عن معنى الحياة وهذيان الموت ، عن الحقيقة والنفاق ، عن الحب والحقد ، عن الشعور بالوحدة والاخوة .

ان الاعتراف الكبير بموهبة وبطولة الفنان ينبع من كون الشاعر يكشف حتى النهاية ـ على الرغم من المخاطر ـ الحقيقة كلها للناس، وهذي هي احدى اهم القضايا في شعر معين بسيسو . فهو يكرس العديد من الابيات لفضح النفاق الادبي ، وتجار الكلمة، وامتهان الانتاج الفني الخاص بالعالم البرجوازي (ان الانتاج الرأسمالي ـ كتب كارل ماركس ـ معروف بمعاداته لقطاعات الانتاج الروحي ، مثلا ، الفن والشعر) .

ان بسيسو يشعر بهذه المعاداة وبكل حدة . فمن تحت قلمه يظهر (الشعراء تجار الكلمة) الذين يصرخون معلنين عن بضاعتهم. هذه الكلمة التي (تستسلم لاي كان) (لساعة او لليلة) ، وذلك الفنان الذي يتساوى عنده (الماس والزبالة). ففي قصيدة (رامبو) يرسم الشاعر صورة لانحطاط الانتاج الذاتي في ظل النظام الرجعي ، وفي ظل صحافة الدولة البوليسية المستغلة . فالشاعر يتوجه بكل كراهية منددا بمرحلة الجمود والسلبية الاجتماعية وكل مظاهر العفونة والخمول من خلال واقع الاضطهاد الاجتماعي .

ان معين بسيسو في عمق جوهره الداخلي هو شاعر سياسي كما ان تركيبه الروحي لا ينفصل عن مشاكل وآلام القرن العشرين ، وعن الصراعات الدراماتيكية للعالم العربي في ايامنا هذه . وهو لا يعير التفاتا على الاطلاق لتلك الانشادات المزركشة التي لا روح فيها ، والتي غالبا ما تبدو في اشعار البعض . فموهبة معين بسيسو لا تتلائم مع الالفاظ البراقة ، وكلمات الجرائد المحلية العامة المبتذلة ، والشعارات الباردة . فعندما يكتب معين اشعاره الوطنية ، فهو لا ينطلق من بواعث خارجية ، وانما ينسجها من نبضاته الداخلية العميقة . ولهذا . فان اشعاره السياسية تشكل نتاجا لخفايا حقيقته العميقة . وهي جديدة وناضجة ، وتنطوي على المفاجآت المدهشة ، ولا تتركنا لا مبالين . فمعين بسيسو ، منذ بداية خطواته الشعرية الاولى .. وكمهده .. شريفا وصريحا ، وبدون اي ضغط يثقل نفسه، استجاب على الدوام للاحداث الاجتماعية في البلدان العربية . فمنذ سنين .. وعندما كان العراق تحت سيطرة العصابة الملكية ..وعندما كان افضل ابنائه يتعذبون في الصحاري وفي معسكر الاعتقال (نقرة السلمان) « بوخنفالد العراق » ، كتب الشاعر قصيدة (النهر الثالث في العراق) وهي قصيدة سياسية حادة ، وان كانت تتميز بالخصوصية العميقة .

انا لن اخط رسالة لك لا طوابع لا رسائل
تصل الرصاصة بالرصاصة والقاتل بالقاتل

(١) الديوان الذي صدر عام ١٩٥٢ هو ديوان (المعركة) ،وهو اول ديوان صدر للشاعر معين بسيسو .

فهنا يخافون الاغاني والطوابع والرسائل (١)

ان القضية الاساسية في شعر معين بسيسو هي قضية الوطن الممزق الدامي .. قضية الشعب الفلسطيني المضطهد . ففي الوقت الذي يندد فيه الشاعر بالمحتلين ، فهو يفضح كذلك اولئك السياسيين الرجعيين المتطرفين ـ كافة اعداء تحرر عرب فلسطين . ان الشاعر يتبرأ من المهاترات العقيمة لمدعي الوطنية المتلونين . ويرمي في وجوههم الحقيقة المرة عن الوطن المغتصب ،وعن الم الشعب . وهو يواجه المتطرفين الذين يشهرون بحركة التحرر بالبطل السري في قصيدته اغنية (الرجل والجواد) ،الذي يحمل الى القرية المحتلة (الورق ، المطبعة ، والكتب) لكي يهيء المواطنين للنضال الشعبي الواعي في سبيل حقوقهم .

ويموت البطل . ولكن الاغنية عنه تستمر . وهي (تظهر كل ليلة من الجبال) وتدوي عند بيوت الفلاحين .

فمأساة شعبه الغالي لا توحي اليه بآبيات الحزن والشجن،فحسب، فالشاعر يشحذ الكلمات الحادة الثاقبة عن الاخوة المنفيين وكأنه يشحن اشعاره بالقوة والصلابة والروح العالية وبالارادة للمقاومة التي لا تنطفيء في الشعب الفلسطيني . ف (عيون الناس صلبة كالرصاص)، وعندما تنساب قطرات الدم التي تجري على الارض القديمة ، تنهض امواج النار .

كذلك :

عنقي لم يصبح يوما ساريةً
لمعاطف او خوذات المحتلين

كل هذا لدليل على الشجاعة والاصرار والثبات حتى النصر . وصورة جدار البيت القديم في غزة من قصيدة (لا) تتطور حتى تصبح رمزا للوطن الذي لا يركع .

(ان بسيسو ـ يكتب الشاعر السوفييتي المعروف قايسين كوليف ـ مثل اي فنان صادق ، وهو بالدرجة الاولى آبن ارضه ، حيث يربطه بها حب حميم ، انه وفيّ لها .. ولخبزها .. ولمائها ... ولتاريخها .. ولمصيرها الحالي ومستقبلها حتى الايثار . وهو يعيش نضال شعبه من اجل الحرية .. يعيش سعادته والامه ومشاكله وامانيه. وان اي شاعر ، دون ذلك ، لا يمكن ان يستمر . ومن خلال قلب شعبه العزيز فقط ، ومن خلال روح وطنه يمتد طريقه الى الانسانية. لقد تغلغل معين بسيسو بشعره وعبر عن كل ما اثير ، وكل هذا يعتبر موضوعه الرئيسي المقدس).

هذا ولقد شق معين بسيسو طريقه الى الانسانية . لذا فان مظاهر التعصب القومي ، وضيق الافق ، والانطواء على النفس ..غريبة عنه تماما ومثيرة للنفور . ويتأثر قلبه بكل حدة لمأساة الفلسطينيين العرب المضطهدين ، ولمأساة اليهود الذين عذبوا في معسكرات الموت الفاشية . كما انه كتب الاشعار عن المعتقلين في اليونان ، وعن ابطال حصار مدينة لينينجراد الذين يرى فيهم الشاعر رفاقه في النضال ضد قوى الظلام في عصرنا .

وعندما يدور الحديث عن قوى الظلام، فان بسيسو يدرك ان مسالة الرجعي لا تنحصر في عرقه القومي . ففي قصيدة (انا .. وانت .. وهو) يعطينا صورة عامة لذلك الذي يذعن بشكل اعمى لارادة الحكام الفاشيست ، ولا يناقش كالجندي الذي علموه ان ينفذ التعليمات فقط ، واقسى التعليمات اللاانسانية . فنحن لا نرى هنا اية ملامح محددة ، واين (هو) يخدم : أفي جنوب افريقيا ام في روديسيا، افي تشيلي ام في الشرق الاوسط . ونحن نتعرف عليه ليس من خلال انتمائه القومي ، وانما على ضوء ما تعلمه ، وحسب الكلمات والافعال التي يقوم بها .

فلقد علموه :

وان يكون قلبه حجر
فكان قلبه حجر
وان يصبح (عاش اي شيء)
(يسقط اي شيء)
(يموت آي شيء)
ولم يكن هناك في قاموسه ،
أنا وانت
فكل ما يعرفه ،
ما علموه
ان يقتلني انا وانت

ويعيش معين بسيسو في المنفى . ولكن الوطن بالنسبة للشاعر يظل هو المنبع لقواه الانتاجية الادبية والاخلاقية . فهو على الدوام يشعر انه ابن هذا الوطن ،وهو على استعداد ان يعاني ويضحي في سبيله. ولا يستطيع ان يخنق هذا الحب لا (نعيق الغربان) ولا ملل ورتابة مجتمع المنفى . ويواصل الشاعر كتابة اشعار جديدة ، ثم يعمل ككاتب اجتماعي ومسرحي . انه مثقل بالمشاعر القلبية الطيبة تجاه بلادنا التي زارها في السنوات الاخيرة اكثر من مرة . ولقد ساهم معين بسيسو بنشاط فعال في عدة مؤتمرات ادبية آسيوية وافريقية ، ومنها المؤتمر الخامس لكتاب بلدان آسيا وافريقيا الذي انعقد في الماآتا ،وفي المهرجان الشعري في يريفان خريف عام ١٩٧٣ .

ويتطلع الشاعر بكل ثقة وشجاعة نحو المستقبل (الان فقط ، بدات مرحلة ثورية جديدة في الشعر الفلسطيني) هذا ما قاله معين بسيسو في مقابلة صحفية اجراها معه مندوب جريدة(الاخبار) البيروتية . ومعين بسيسو على ثقة ، بأن الشجاعة ستنتصر ، وان العدالة ستنتصر ، وستصبح فلسطين القديمة مسالة ، وهادئة وآمنة لكافة شعوبها .

(١) جميع النصوص الشعرية التي اوردها الشاعر ميخائيل كورغانتسيف في مقدمته ، حرصنا على الرجوع الى مصدرها الاصلي في دواوين (معين) الشعرية المختلفة وذلك للدقة فقط .

صدر حديثا

عذابات احمد بن ماجد

للشاعر البحريني

يعقوب المحرقي

* * *

هنا الوردة .. هنا نرقص

للقصاص البحريني

امين صالح

منشورات دار الآداب ـ بيروت

بالاشتراك مع اسرة الادباء والكتاب في البحرين